إشكالات علم الاجتماع في الوطن العربي

قراءة تحليلية لاعترافات بعض علماء الاجتماع العرب

د. سهى حمزاوي
أ. سامية كواشي
جامعة خنشلة كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية (الجزائر)

Abstract:

The current crisis of sociology returns back to the conceptual and methodological trends in this science, where intellectuals in this regard emphasize that the research and social studies suffer from the absence of the exact sociological subtraction which led to the emergence of the separation of thought and theoretical crisis and the theory about the reality and peculiarities of the Arab world communities.

Specialists in sociology experienced several obstacles and obstructions prevented the establishment of Arabic social science cares about history and problems of the Arab community, and they have acknowledged the futility of the theory and inadequate methodology used.

Accordingly, this article is an attempt to read and analyze the confessions of some Arab specialists in sociology, and highlighting the main problems and challenges facing this science by revealing the most prominent theoretical and methodological problems of the sociological studies In the Arab world According to the confessions of the employed in this science?

Keywords: social sciences-sociology-crisis-theory method

Résume:

La crise actuelle de la sociologie remonte aux attitudes théoriques et méthodologiques divergentes dans cette science, où les penseurs affirment à cet égard, que les recherches et les études sociales souffrent de l'absence de discours sociologique précis. Ce qui a conduit à l'émergence de la crise de la sécession de la pensée et de la théorie, par-rapport à la réalité et les particularités des communautés du monde arabe. Les spécialistes en sociologie avait connu plusieurs obstacles qui ont empêché la mise en place de la science sociale arabe et ses problèmes. Par conséquent, ils ont reconnu la futilité de la théorie et la méthodologie inadéquate qu'ils utilisent.

Dans ces conditions, il intervient cet article qui est une tentative de lecture et analyses des aveux de certains spécialistes arabes en sociologie, et mettre en évidence les plus importants problèmes et défis auxquels cette science, en révélant les problèmes théoriques et méthodologiques les plus importants d'études sociologiques dans le monde arabe, selon les confessions des personnes intéressées par cette science.

Mots clés: Sciences sociales- Sociologie- la crise- la théorie- la méthode

ملخص:

تعود الأزمة الحالية لعلم الاجتماع إلى تباين الاتجاهات النظرية والمنهجية في هذا العلم، حيث يؤكد المفكرون بهذا الصدد علـــى أن البحوث والدراسات الاجتماعية تعاني من غياب الطرح السوسيولوجي الدقيق مما أدى إلى ظهور أزمة انفصال الفكر والنظريـــة عـــن واقـــع وخصوصيات مجتمعات العالم العربي.

وقد واجه المختصون في علم الاجتماع عدة عقبات وعوائق حالت دون تأسيس علم اجتماعي عربي يهتم بتاريخ المجتمـــع العربـــي ومشاكله، فاعترفوا بعقم النظرية وقصور المنهج الذي يستخدمه.

وعليه يأتي هذا المقال كمحاولة لقراءة وتحليل اعترافات بعض المختصين العرب في علم الاجتماع وإبراز أهم الإشكالات والتحديات التي تواجه هذا العلم من خلال الكشف عن أبرز المشكلات النظرية والمنهجية للدراسات السوسيولوجية في العالم العربي حســـب اعترافـــات المشتغلين بهذا العلم.

الكلمات المفتاحية: العلوم الاجتماعية- علم الاجتماع - الأزمة- النظرية- المنهج.

مقدمة:

ولد علم الاجتماع كعلم من رحم الظروف التاريخية الخاصة بالمجتمع الغربي الأوروبي، وتبنته الفلسفة التي ثارت على الفكر الكنيسي، فالنشأة الأوروبية لعلم الاجتماع ترجع إلى طبيعة الأوضاع المجتمعية الاقتصادية والسياسية والفكرية التي مر بها المجتمع الأوروبي، وارتباط نشأة علم الاجتماع بأزمة المجتمع الرأسمالي والتحول من النمط الإقطاعي إلى النمط الرأسمالي الحر.

وقد كان علم الاجتماع قراءة علمية واجتماعية للواقع المجتمعي الغربي، ورغم أن هذا العلم أوربي المنشأ ويتسق مع واقع هذا المجتمع ويعبر عن مشكلاته، ويعمل على استقراره وتوازنه، إلا أن نشاطه امتد إلى كافة أرجاء العالم، بما في ذلك العالم العربي بخصوصياته التاريخية والمجتمعية المختلفة عن خصوصيات المجتمع الغربي. فقد كان لهذا العلم حضور مؤسسي مبكر بتأسيس قسم متخصص في علم الاجتماع سنة 1925 بالجامعة المصرية، أما الدراسات والبحوث الاجتماعية حول المنطقة العربية سواء كانت محلية أو دولية فمازال عمرها قصيرا، ولا تزال الجهود البحثية الفردية هي الأبرز.

ويعد غياب الاسهام النظري العربي للعلوم الاجتماعية واحد من أهم مشكلات الدراسات السوسيولوجية في الجامعات العربية. فأغلب النظريات المتداولة في الواقع العربي هي انعكاس للفكر العلمي الغربي خاصة وأن هذه النظريات الكلاسيكية التي مازالت تتداول في تفسير التغيرات الحاصلة تعتبر وليدة الظروف التاريخية والأوضاع الطبقية التي نشأت في ظلها وقدمت تفسيراتها وتأويلاتها في إطار رؤيتها لعوامل وأبعاد التغير في المجتمع، لذلك ظل الجهد الفكري في ميدان العلوم الاجتماعية في أطواره المختلفة يدور في حلقات متتابعة من الترجمة والاقتباس والمحاكاة دون أن يتجاوز ذلك إلى مرحلة الفكر الذاتي في ضوء خصوصيات المجتمع العربي.

وقد اصطدم المختصون في علم الاجتماع بعقبات وعوائق حالت دون تأسيس علم اجتماعي عربي يهتم بالواقع المجتمعي العربي وتاريخه، وبهموم الإنسان العربي ومشاكله، فاعترفوا بعقم النظرية وقصور المنهج في علم الاجتماع في محاولاته لدراسة المجتمع العربي وطرح مشكلاته على بساط البحث. وهنا يعطي عالم الاجتماع أحمد ابراهيم خضر في كتابه اعترافات علماء الاجتماع في بلادنا الكلمة إلى عدد من علماء الاجتماع العرب أمثال: عزت حجازي، سالم ساري، حيدر ابراهيم وغيرهم. ويستنتج من خلال أقوالهم واعترافاتهم الصريحة بتبعية علم الاجتماع في جامعاتنا للفكر العربي والماركسي، وبأن رجاله أكثر تشددا في تبعيتهم لهذا الفكر من أصحابه أنفسهم.

وعليه نصل إلى طرح الاشكال التالي:

ما هي أبرز الإشكالات النظرية والمنهجية في الدراسات السوسيولوجية في العالم العربي حسب اعترافات المشتغلين بهذا العلم؟

وللإجابة عن التساؤل السابق يأتي هذا المقال كمحاولة لقراءة وتحليل اعترافات ثلة من المختصين العرب في علم الاجتماع، وإبراز أهم الإشكالات والتحديات التي تواجه هذا العلم.

أولا- إشكالية المرجعية المجتمعية والخصوصية التاريخية:

كان لعلم الاجتماع الغربي أهمية ودورا كبيرا في إعادة ترتيب البيت الأوروبي والفرنسي خاصة بعد أن طالته فوضى الثورات الاجتماعية والفكرية، حيث وضعه أوجست كونت Auguste Comte (1798-1858) كهندسة للمجتمع.

وكان يهدف من خلاله إلى بناء مجتمع جديد تسود فيه الضوابط الاجتماعية لسلوك الأفراد بدلا من صراع الجميع ضد الجميع، ومن ثم إعادة الاستقرار والتوازن للمجتمع الفرنسي. فما كان لعلم الاجتماع أن ينشأ ويتطور ما لم

يحمل الهموم والمسؤولية الأخلاقية اتجاه المجتمع، وما لم يتكلم بصوته، وعليه نصل إلى طرح السؤال التالي: هل قام علم الاجتماع بهذا الدور في المجتمعات العربية؟ وهل حمل الجنسية العربية خلال مسيرته أم اصطبغ بصبغة غربية؟

بهذا الصدد يدعو عالم الاجتماع الجزائري عنصر العياشي جميع الباحثين في حقل العلوم الاجتماعية للمساهمة في بعث نقاش فكري حول مكانة ودور هذه العلوم في ضوء الخصوصية التي تطبع مجتمعاتنا باعتبارها إنتاجا لسيرورة تاريخية وثقافية متميزة. ويؤكد هذه المسألة عزت حجازي قائلا: "**إننا لا ننتج علما حقيقيا، وإنما نستورد ونستهلك دون تبصر، ونخلط في ذلك بين ما يمكن أن يفيد وما لا غناء فيه**" [1] ، ويضيف اعترافا في مقام آخر بقوله: " **لقد بلغ اعتماد بعض المشتغلين بعلم الاجتماع في الوطن العربي على علم الاجتماع الغربي المثالي والأمريكي بخاصة، سواء في مرحلة إعدادهم الأكاديمي أو في مرحلة ممارستهم لنشاطهم في التدريس والبحث والكتابة حد التوحد معه لا عن تقدير موضوعي لقيمته وإنما عن شعور بالنقص حياله**" [2]

أما علي الكنز فيرى أنه "**إذا أردنا تقويم الممارسات السوسيولوجية الحالية في بلادنا أمكننا وصفها بتبعيتها الأساسية للسوسيولوجيا الغربية ... تأخذ هذه التبعية أشكال التكرار والتقليد، أكان هذا التقليد واعيا أو غير واع، مما يؤدي إلى انعكاس وانحراف في قضايا ومشكلات العالم الغربي داخل البنى الثقافية والاجتماعية لعالمنا...**" [3]

ويواصل علي الكنز معترفا " إن **النتائج التي توصلت إليها النظريات الغربية غير ملائمة لبيئتنا، كونها جردت من إطارها الاجتماعي والتاريخي وانفصلت عن مسار تكوينها... فكل النظريات الغربية قد نتجت عن مجتمعاتها وقضاياها الاجتماعية والتاريخية، والحقل المعرفي الذي نمت بداخله وطورت قضاياها المحددة. ويكمن خطأ علماء الاجتماع العرب في اعتقادهم أنه من الممكن استيراد نظريات الغرب بغض النظر عن ارتباطها بهذين العاملين خطأ فادح يمكن اعتباره التباسا تاريخيا حقيقيا**" [4]

أما عبد القادر عرابي فيقر: "**لا يخفى على العاملين في الحقل الاجتماعي أن علم الاجتماع العربي كان ومازال دون آفاق مجتمعية، مازال غريبا وبعيدا عن المجتمع لأنه لم يولد من رحم هذا المجتمع ولم تصلب عوده الثقافة العربية، ولم تكون هويته الفكرية**" [5]

إن القراءة البسيطة لهذه الاعترافات التي أدلى بها مختصون في علم الاجتماع – تدريسا وممارسة وبحثا- توحي بأن علم الاجتماع العربي يعاني من إشكالية النشأة والتكون خارج السياق التاريخي والمجتمعي للمجتمع العربي، وبالتالي غياب المرجعية المجتمعية على اعتبار أن المجتمع وظواهره والفواعل فيه وسلوكياتهم وغيرها هي المواضيع الرئيسة لعلم الاجتماع.

إن البناء الاجتماعي للمجتمع العربي الذي هو أساس قيام علم اجتماعي، يعايش أنماط إنتاجية مشوهة، زراعية ورعوية يتعايش معها نشاط تجاري، فلا هي رأسمالية ولاهي اشتراكية، كما أن الاستعمار وما صاحبه من صور للتبعية يكاد يكون قاعدة في تاريخ العرب الحديث والمعاصر، حيث سعى الاستعمار -إنجليزيا كان أو فرنسيا أو إيطاليا- إلى تقسيم المجتمع العربي إلى دويلات، وحاول طبع العلم والفكر بطابع يخدم مصالحه ويحافظ عليها بأساليب مختلفة. [6]

وقد فرضت علاقات التبعية الخارجية هذه ذات الشكل اللامتكافئ مع المجتمعات الرأسمالية الغربية، استدماج الواقع السياسي والاقتصادي والاجتماعي للدول والمجتمعات الغربية في واقع المجتمعات العربية التي تتميز بخصوصيات اجتماعية وتاريخية تميزها عن المجتمعات الغربية، مما أفقد العرب القدرة على التغيير الذاتي، وأصبحت عوامل التغير خارجية أكثر منها ذاتية. حيث لم يشهد المجتمع العربي ثورات سياسية وثقافية حقيقية، كتلك التي شهدتها أوربا والتي كانت الباعث لميلاد علم الاجتماع كوسيلة لإعادة بناء مجتمع تحكمه الضوابط الاجتماعية المبنية على العلم والممارسة العلمية، ومتحررا من كل الوصايا الدينية واللاعلمية.

هذا العلم الغربي المنشأ والمعبر عن التجربة المجتمعية والتاريخية الغربية، انتقل إلى المجتمعات العربية، الأمر الذي طرح إشكالية الاغتراب السوسيولوجي وعمليات محاكاة وتغلغل النظريات الغربية في الواقع العربي، حيث سعت معظم الجامعات العربية ولازالت تسعى إلى نقل وتلقين قضايا ومسلمات الفكر الغربي المحافظ الذي يقبل الواقع كمعطى لا يقبل النقد. وفي هذا الإطار يعترف علي الكنز قائلا: "**عرف تاريخ العلوم الاجتماعية في البلدان العربية تطورا مختلفا كل الاختلاف. عملت هذه البلدان في حقبة تاريخية لاحقة وبعد أن حازت على استقلالها، على تشييد جامعات حديثة نظمتها على صورة النموذج الغربي، ووجد علماء الاجتماع أنفسهم أمام تأخر كبير في التحصيل العلمي ... فعمدوا إلى انتهاج طريق نقل المعرفة، هذه المعرفة التي حصل الغرب عليها طوال قرنين من البحوث ... إن النقل لم يتمشكل ضمن تحديد بعيد النظر في تفسير مختلف النظريات، وبناء المفاهيم في ضوء الواقع المحلي ... إذ وجدوا أنفسهم أمام مفاهيم ونظريات مستوردة ومقطوعة من جذورها الاجتماعية والتاريخية...**" [7]

أما الطاهر لبيب فيقول: "**الواقع المغربي يفهم دائما عبر قراءات ماركسية**" [8]

كذلك نشير بهذا الصدد إلى ما جاء به الأستاذ المرحوم الدكتور علي الوردي -أستاذ علم الاجتماع العراقي- عندما التفت إلى كون علم الاجتماع هو وليد بيئته ومجتمعه وتراثه وتاريخه الخاص، والذي له منتجات ومشاكل وتصورات وتراكيب اجتماعية تختلف حسب اختلاف هوية الأمة ومرتكزاتها القومية لهذا الشعب أو ذاك، حيث يؤكد على أننا بحاجة إلى علم اجتماع خاص بنا يستمد إطاره من تراثنا الاجتماعي وواقعنا" [9]

إن هذه الاعترافات لهؤلاء المختصين العرب في علم الاجتماع تؤكد غياب طرح سوسيولوجي عربي شرعي يعبر عن العقل العربي، وعن هموم الإنسان العربي، بينما يحضر طرح سوسيولوجي غربي يعبر مضمونا ومنهجا عن تجربة المجتمعات الغربية في حقبة زمنية معينة.

ثانيا-إشكالية التبعية للإيديولوجيات الغربية:

أكد العديد من الباحثين السوسيولوجيين أن علم الاجتماع الأكاديمي مازال تابعا للإيديولوجيات الأجنبية، ففي الوقت الذي تفرض فيه التغيرات العلمية والاكتشافات محاولة تحصيل المكتسبات الجديدة بناء على التغيرات السريعة، نجد أن علم الاجتماع يتواجد في عمق الأزمة أكثر من أي علم آخر، مما ينعكس على الممارسة السوسيولوجية التي تبقى بدورها تابعة للسوسيولوجيا الغربية من ناحية المضمون والمنهج، وبهذا الصدد يوضح علي الكنز قائلا: "**إن إيجابيتنا تجاه النظريات السوسيولوجية الغربية جعلتنا نتقن التعليم، إلا أنها لم تعطنا الأدوات اللازمة لمعالجة قضايا واقعنا الذي يختلف في تكوينه عن واقع المجتمعات الغربية، لذا تبقى أغلبية الأبحاث عقيمة، إذ تؤدي في أحسن الحالات إلى تجميع معلومات تجريبية يعاد تركيبها في إشكالات مصطنعة لا تلائم الواقع**" [10]

وفيما يخص مسألة التبعية هذه يقر فوزي العربي مضيفا: "**يعاني علماء الاجتماع العرب من التبعية الفكرية، وهم متأثرون بالنظريات المستوردة التي عاصروها في مرحلة التكوين، ومازالوا يكرسون أنفسهم لها**" [11]

ثالثا- إشكالية الموضوع:

إن الحديث عن موضوع علم الاجتماع ابستمولوجيا يشير الى بنية معرفية متكاملة وغير متناقضة، تتكون من مجموعة عناصر أهمها المفاهيم باعتبارها تصورات ذهنية مجردة عن وقائع مادية "وبالتالي فالاختلاف في تحديد المفاهيم هو في الأساس اختلاف في التصور الذهني للأفراد أي أن مجموع الرموز التي تفكر من خلالها الذات المفكرة تختلف باختلاف البيئة الثقافية والاجتماعية، وبتعدد الخيارات الخارجية. وعليه فانعدام الإطار الترميزي والتصوري المشترك يؤدي إلى تعدد المفاهيم والتصورات مما يؤدي إلى الاختلاف في تكوين البنية النهائية لموضوع السوسيولوجيا" [12]

إن هذه الحالة خاصة بعلم الاجتماع، أين يتفق كل علماء الاجتماع حول نقطة واحدة هي صعوبة تحديد موضوع علم الاجتماع عكس بقية التخصصات الأخرى، وسبب ذلك يعود في الأساس إلى البعد الإيديولوجي الذي أطر وحدد مجالات الترميز وأهداف السوسيولوجيا قبل أن ترى النور، وعليه تختلف التعريفات ومن خلالها الموضوعات بحسب الإطار الإيديولوجي الذي تتكلم من خلاله الذات السوسيولوجية. ومن هذا المنطلق نصل إلى طرح تساؤل مفاده:

ما هي أهم القضايا التي تناولتها السوسيولوجيا العربية كموضوع لها؟ وهل تمكنت من استخدام أساليب وتقنيات منهجية ملائمة لخصوصية مجتمعاتها الثقافية والحضارية؟

إن الأسئلة السابقة يجيب عنها المختصون في علم الاجتماع من خلال اعترافاتهم، حيث يقول عزت حجازي: "**معظم ما عرض له المشتغلون بالعلم والبحث موضوعات أو مشكلات يفتقر الكثير منها إلى عنصر المعاصرة، أي أنه تقليد تجاوزته حركة البحث والتفكير... بعيد عما هو محوري في النظام الاجتماعي وحيوي لحياة البشر**" [13]

أما سالم ساري فيقول: "**لم تخرج إشكاليات البحوث العربية بذلك عن أنماط سلوكية وأفعال انحرافية، قيم باثولوجية، أو ظواهر قابلة للملاحظة والقياس كاختلالات فردية**" [14]

ويوضح علي الكنز من خلال اعترافاته فيما يخص هذه المسألة أنه " **لم تعطنا النظريات الغربية الأدوات اللازمة لمعالجة قضايا واقعنا الذي يختلف في تكوينه ويزيد تعقيدا على واقع المجتمعات الغربية، لذا تبقى الأبحاث المحلية باستثناء بعضها القليل عقيم، إذ تؤدي في أحسن الأحوال إلى تجميع طائفة من المعلومات التجريبية يعاد تركيبها في إشكاليات مصطنعة لا تلائم الواقع، لقد برهنت التجربة أنه من الصعب استعمال أدوات تحليل مستوردة من حضارة أخرى في بحوث محلية**" [15]

أما عبد الباسط عبد المعطي فيرى "**أن الطابع الغالب على الدراسات السوسيولوجية العربية، تمثل في التأليف المدرسي المعتمد على النقل والترجمة والدراسات الجزئية حول مشكلة محددة، أو نظام اجتماعي محدد كالأسرة والتعليم في الغالب، الأمر الذي يحدد الجهود البحثية بدراسة الأبعاد والثوابت للمجتمع العربي والمبالغة فيها، وإغفال الأبعاد الدينامية خاصة موضوعات التغير الاجتماعي**" [16]

توحي هذه الاعترافات أن إشكالية أخرى تقف في وجه علم الاجتماع في العالم العربي وهي الفقر الابستمولوجي والنظري، بطبيعة الحال أن المناهج عالمية، لكن مضامينها محلية ذات خصوصية اجتماعية وثقافية.

إن من يقرأ لماكس فيبر ومانهايم يقرأ التاريخ الاجتماعي والثقافة الأوروبية، ومن يقرأ أي بحث أجنبي يسهل عليه تحديد هويته النظرية وظيفي، مادي أو تاريخي، وهذه دراسة أرادت التوفيق بين الاتجاهات النظرية، وتلك ترفض التنظير لتنطلق من الواقع، ولكنك عندما تقرأ بحثا أو دراسة عربية يراودك الشك في معرفة اتجاه كاتبها، وإتقانه لأبجديات البحث السوسيولوجي ودور النظرية فيه" [17]

ورغم هذا فإن أغلب المشتغلين في الحقل السوسيولوجي العربي ينتمون بحثا وتأليفا إلى الاتجاهات المحافظة والامبريقية، وفئة قليلة تناصر الاتجاهات النقدية والتجديدية المعتمدة على النقل والترجمة، ومن هنا يبرز الاهتمام بالجوانب الاستاتيكية، وإهمال الجانب الدينامي في المجتمع لتبقى الكثير من المواضيع، وقطاعات عريضة من المجتمع العربي منظورا إليها على أنها مواضيع وقطاعات سرية يعد كشف النقاب عنها جرما – السلطة وآليات السيطرة، العلاقات والسلوك الجنسي، العقيدة والممارسات الدينية وغيرها، وحتى المواضيع المعالجة فإن البحث فيها تسيطر عليه النظرة الامبيريقية الجزئية التي تركز على الآني والمعطى، متجاهلة الكامن والخفي المتجذر في الكل والشمولي مع التطلع إلى تحقيق أعلى درجات الموضوعية" [18]

رابعا- إشكالية المنهج:

لقد كان المنهج الهاجس المقلق لعلم الاجتماع منذ النشأة، حيث كان البحث عن المنهج هو البحث عن العلم في حد ذاته داخل النسق الفلسفي.

إن أصل أزمة المنهج في علم الاجتماع هو الرغبة الملحة في استخدام طرق ومناهج وأساليب العلوم الطبيعية وتطبيقها بحذافيرها في دراسة الظواهر الانسانية والاجتماعية على أمل أن يساعد ذلك على الوصول إلى نفس الدرجة من الدقة التي بلغتها العلوم الطبيعية.

والمنهج باعتباره الطريقة الصحيحة والسليمة التي توصلنا إلى نتائج أفضل في أسرع وقت وأقل جهد لم يستطع أن يتلائم مع موضوع علم الاجتماع الذي لم يتحدد بعد. فتعددت المناهج بتعدد المواضيع، وتفاقم الصراع المعرفي داخل النسق السوسيولوجي، وأصبح موضوع علم الاجتماع هو الصراع الداخلي حول أفضل منهج وأحسن أداة وأسلوب" [19]

وفي هذا الإطار يذهب الطيب تيزيني - في تقديمه لكتاب نقد علم الاجتماع البرجوازي المعاصر- إلى أن علم الاجتماع الذي دخل الوطن العربي بعد الحرب العالمية الثانية ركز على الموقف الامبيريقي التجزيئي المبسط في ملاحظة الظواهر مبعثرة، مسقطة من حسابها الإطار النظري الشامل الذي يحتويها، مما أدى حسبه إلى انسداد الأفق التاريخي في البحث السوسيولوجي العربي" [20]

هذا الاختيار لنوع معين من المواضيع والمقاربات المنهجية في الممارسة البحثية السوسيولوجية العربية، انعكس على التصميم المنهجي للبحوث وتنفيذها. فمن السهل على المتصفح للدراسات الاجتماعية العربية أن يلاحظ شيوع استخدام الباحثين لأدوات جمع البيانات الكمية كالملاحظة والاستمارة، التي أصبحت مرادفة للتحقيق الميداني، لكن الخطأ ليس في هذه الأدوات، إنما في كيفية استخدامها بطريقة خاطئة، أو الاعتماد عليها منفردة أو متكاملة مع بعضها البعض، أو أنها تلائم أهداف البحث أم لا، كما أن هذه الأدوات تخضع مثل النظريات للنسبية الحضارية، ويعبر عن ذلك عزت حجازي قائلا: "**... ومعروف أن تلك الأدوات تخضع للنسبية الحضارية، أي ترتبط قيمتها وجدواها بالسياق الحضاري الذي تعد وتستعمل فيه أصلا، ومن هنا يكون استيرادها من سياق حضاري إلى آخر واستعمالها دون تعديلات جوهرية أمرا غير مقبول...** " [21]

والأدوات ليست محايدة، حيث ينطوي إعدادها وتنفيذها على أبعاد إيديولوجية مهمة ومؤثرة في الممارسة السوسيولوجية، والفاعلين المشتركين في هذه الممارسة كالباحث الذي يعد التصميم المنهجي والأدوات والباحث الميداني الذي يجمع المعلومات فعلا، والمجيب الذي يقدم المعلومات، تتعقد الأمور كثيرا نتيجة الوعي والوعي الزائف بالبحث وأغراضه وجدواه، ودور كل فيه. [22]

إن الاقتصار على استخدام أدوات بعينها واستعمالها بطريقة خاطئة ودون إدراك للعديد من التعقيدات في استخدامها يؤدي إلى جوانب قصور عديدة في المعلومات، في حين توجد كنوز من المعطيات في كل موضوع لم تكتشف بعد، بل إن إمكانات بعض الأدوات لم تستغل بعد. يقول عبد الباسط عبد المعطي في هذا الإطار: " **نظرا لأن الاستمارة في تصميمها لم تعتمد على إطار نظري واضح ومحدد، فالباحث يضع بنودا هي من صنعه ويصوغ أسئلة يحاصر بها المبحوث ليجيب إجابات يريدها الباحث فيصير الموقف مفتعلا، ونصل إلى نتائج من نفس النوع، ونزعم أن هذا هو منطلق البحث السوسيولوجي**" [23]

خامسا- إشكاليـــــة نتائج البحوث:

بعد استعمال الباحث لأدوات بحث كمية ترمي إلى الوصف وتقرير خصائص الظواهر، فإن هذا الوصف يأتي دائما آليا للواقع الاجتماعي، أقل ما يقال عنه أنه سوسيوغرافيا أو وصف اجتماعي لا علاقة له بعلم الاجتماع والمجتمع وظواهره. حيث يستطرد الباحث في عرض جداول طولية وعرضية، ونادرا ما يرفق هذا بمحاولة التعرف

على ما تحمله هذه النتائج من دلالات، في ضوء ما يعرفه المجتمع من تحولات بنيوية ووظيفية. وفي هذا الإطار يقر عزت حجازي: " **ولهذا تنتهي معظم الدراسات والبحوث الاجتماعية بعدد يكون هائلا في بعض الحالات من الجداول تتوزع فيها المادة الميدانية، ويعلق عليها بوصف موجز... ويأتي ناتج البحث هزيلا لا يضيف كثيرا، وقد لا يضيف شيئا إلى ما يعرفه المثقف، بل الإنسان العادي عن موضوع البحث**" [24]

هذا الإشكال يقود إلى إشكال آخر هو غياب التفسير والتأويل ومن ثم التنظير، ففي حالات كثيرة يكتفي الباحثون بالإجابة عن السؤال كيـــــــــــــف؟ مع تجاهل السؤال لمـــاذا؟، هذا التساؤل الذي يقود إلى الخيال السوسيولوجي، والنقد البناء وهما ظاهرتان ثقافيتان ترتبطان بالثقافة المتفتحة والمتجددة، والتي تنجب العقل المبدع الذي ينتج النظريـــات التي تفسر الواقع المجتمعي وتتحاور معه، هذه النظريات طورها علماء وهبوا أنفسهم للعلم، حيث فهم هؤلاء أن العلـــم رسالة ومسؤولية أخلاقية وعلمية بالدرجة الأولى، وليس مجرد مهنة أو نشاط بحثي ظرفي. وفي هذا الإطـــار يعتـــرف عزت حجازي قائلا: "**تحول معظم المشتغلين بعلم الاجتماع إلى مفكرين بأجر، يبحثون ويدرسون ويكتبون في حـــدود ما يطلب منهم، ويؤجرون عليه، وتردى بعضهم في الغفلة دون قصد، وتمادى آخرون في طريق الانتهازية ...**" [25]

سادسا- إشكالية التنظير للقضايا السوسيولوجية العربية:

إن تفسير إشكالية علم الاجتماع العربي وفهم أزمة التنظير للقضايا السوسيولوجية في العالم العربي لا يمكن أن يتحقـــق في ضوء دراسة وتحليل واقع المجتمعات العربية والوعي بخصوصيتها التاريخية فقط، بل لا بد من السعي إلـــى فهـــم طبيعة العلاقات غير المتكافئة اقتصادية كانت سياسية أو ثقافية بين هذه المجتمعات وواقع المجتمع الغربـــي الرأســـمالي ناهيك على أن المتتبع لتاريخ أوروبا الرأسمالية وتأثير هذا التاريخ على نشأة علم الاجتماع الغربي يدرك علـــى الفـــور طبيعة الظروف الباعثة على نشأة هذا العلم. [26]

وترجع إشكالية التنظير للقضايا الاجتماعية في المجتمعات العربية في الأساس إلى اغتـــراب علـــم الاجتمـــاع والنظريات الغربية عن واقع هذه المجتمعات. ومن ثم يمكن القول: إن اغتراب علم الاجتماع العربي يمثل منتوجا واقعيا لعملية تصدير الفكر والثقافة الغربية ذات الأصول المجتمعية المختلفة إلى المجتمعات العربية، وهـــذا راجـــع إلـــى أن المجتمعات العربية ارتبطت منذ القرن الثامن عشر والتاسع عشر على وجه التحديد بشبكة علاقات خارجية ذات شكل لا متكافئ مع المجتمعات الرأسمالية، وقد فرضت هذه العلاقات غير المتكافئة استدماج الواقع الاقتصادي والسياسي، ومـــن ثم الاجتماعي لدول العالم العربي، وتمفصلها مع النظام الرأسمالي العالمي. وعليه أصبحت مهمة علم الاجتماع تتركـــز في ترسيخ الواقع المتخلف التابع، وتأكيد البنية الاقتصادية الاجتماعية المشوهة لهذه المجتمعات.

والنتيجة النهائية لهذا الاغتراب هي اغتراب علم الاجتماع ونظرياته عن واقع المجتمعات العربية، ويظهر ذلـــك في غياب طرح سوسيولوجي مكتمل النمو أو بالأحرى يظهر بديل لعلم الاجتماع وتبقى النظريـــة السوســـيولوجية فـــي المجتمعات العربية على العموم بحاجة ملحة إلى ابتكار مفاهيم وأطر نظرية تأخـــذ فـــي اعتبارهـــا القضـــايا النوعيـــة والظروف المجتمعية لهذه المجتمعات، مؤكدين على مقولات الخصوصية التاريخية في هذا الشأن كما سبق وأوضـــحنا. [27]

سابعا-إشكالية هيمنة المفاهيم الغربية والدور المنوط بعلم الاجتماع في الجامعات الجزائرية:

إن المتأمل للكثير من المفاهيم على مستوى العلوم الاجتماعية والإنسانية يجد أنها تنتمي لمكينة الانتاج المعرفـــي الغربي أو غيره من المناطق الجغرافية الأخرى مثل آسيا وأمريكا اللاتينية. فالمفاهيم المرتبطة بنظريات التبعية والتنمية والعولمة وصراع الحضارات والحداثة وما بعد الحداثة وتحليل الخطاب لم تسهم الجامعات العربية فيها بشيء. وهذا ما أدى إلى أزمة حادة انتابت الدراسات السوسيولوجية في الجامعات العربية متمثلة في التبعية النظرية للحقـــل المعرفـــي الغربي. [28]

وعن مدى هيمنة المفاهيم الغربية على فكر رجال الاجتماع العرب، وعدم نجاحهم في تطـــوير مفـــاهيم أصـــيلة لتحليل واقع مجتمعاتنا يقول سالم ساري: **"يكتب رجال الاجتماع العرب والمفاهيم الغربية تطغى على محيطهم الفكري، فلم يطوروا إلا قليلا من المفاهيم التحليلية الأصلية التي تساعد على فهم الواقع الاجتماعي العربـــي وتتوجـــه إلـــى تغييره، ولم يظهر لسنوات طويلة في التراث العربي لعلم الاجتماع فيما يتصل بالمشكلات الاجتماعيـــة التقليديـــة إلا تطابقا مع المفاهيم الغربية بمسلماتها وافتراضاتها وارتباطاتها"** [29]

وفيما يخص دور العلوم الاجتماعية والإنسانية يقر الأنثربولوجي الجزائري عبد الرحمن موساوي بأننا بعيـــدون كل البعد

عن الدور المنوط بالعلوم الانسانية والاجتماعية، إذ يفصل بيننا وبين الدراسات الاجتماعية الحقيقية التـــي ســـبقنا إليها الغرب مدى بعيد مما يستدعي الأمر إعادة النظر في تراثنا السوسيولوجي. إذ يقول: " لقد تم تبني علم الاجتماع في الجامعة الجزائرية منذ سنوات الاستقلال ليس لفضائله الخاصة فحسب، وإنما للاعتقاد بعذريته السياسية واعتباره بـــديلا للاثنولوجيا المقصية. إن أعمال علماء الاجتماع الجزائريين يجب أن تكون وقتئذ ليست في خدمة الحقيقـــة الاجتماعيـــة، لكن في مساعدة الدولة للقيام بمشاريع التنمية وبناء الوحدة الوطنية. وعلى أي حال إن الذي تطلبه الجزائر المستقلة مـــن علم الاجتماع هو لعب اتجاه الدولة الوطنية نفس الدور الذي لعبته الاثنولوجيا اتجاه المشروع الاستعماري" [30]

لقد تبنت الجزائر سياسة تنموية كان عليها اتباعها للخروج من الأزمة، وقد فرضت هذه السياسة إقحام الجامعـــة كطرف فعال في عملية التكوين، وبصورة آلية خضعت البحوث والدراسات السوسيولوجية للسياسة نفســـها، وللخطـــاب السوسيولوجي نفسه، وبالتالي أصبح من الضروري على علم الاجتماع الانخراط في العملية التنمويـــة الواســـعة التـــي تخوضها الجزائر والرامية بالدرجة الأولى إلى التحرر من التبعية بجميع أشكالها. وهكذا أصبح علـــم الاجتمـــاع علمـــا تحرريا يهدف إلى التخلص من التبعية من أجل تحقيق النمو والازدهار لمجتمعه من خلال إيجـــاد الحلـــول للمشـــكلات والاهتمام بمصالح جميع الفئات والشرائح الاجتماعية.

ثامنا- إشكالية تكامل النمو الكمي مع النمو الكيفي في العلوم الاجتماعية:

يعترف سعد الدين ابراهيم في ندوة حول علم الاجتماع وقضايا الانسان العربي قـــائلا: "فـــي نظـــري أن علـــم الاجتماع المؤسسي أو النظامي هو في مرحلة نمو مستمرة على المستويات الجامعية، حيـــث نلاحـــظ أن هنـــاك نمـــوا ملحوظا من حيث النوعية في بعض المؤشرات المادية في مختلف جوانب الحياة في المجتمع العربي، وهـــو مـــانعكس على اتجاهات علم الاجتماع. ومن هذا المنطلق فإن النمو النوعي في علم الاجتماع لم يتلائم مع جوانب النمو الأخـــرى في الوظيفة أو الدور الذي يمكن أن يقوم به علم الاجتماع في صياغة الحاضر وفي التمهيـــد للمســـتقبل العربـــي، إذ أن المتخصصين لم يساهموا بالقدر الكافي في صياغة مشكلات المجتمع العربي المعاصر وتفســـيرها... وعليـــه نأمـــل أن يتكامل النمو الكمي مع النمو الكيفي في العلوم الاجتماعية عموما وفي الدور والوظيفة التي يمكن أم تسند إليه.[31]

خاتمة:

تأسيسا على ما سبق نصل إلى أن علم الاجتماع عرف عدة إشكالات نتيجة جدل يقوم على تبيان الـــبعض مـــن العلاقات المخفية الموجودة بين التقليد الخاص بالبحث السوسيولوجي والأطروحات النمطية أو النمـــاذج التحليليـــة مـــن جهة، وبين مختلف المواضيع المسيطرة في البحث من جهة ثانية. وعليه فإن إقامة وتطوير علم اجتماع عربي أصـــيل يحافظ على مشاربه العالمية، ويحقق الانشغال المشروع بفهم وتفسير راهن المجتمع العربي لا يتأتى إلا من خلال:

1. الاندماج في المجتمع واستيعاب حركيته بغية تطوير مسلمات ونظريات ومناهج خاصة مستوحاة من واقع المجتمـــع العربي.

2. الدعوة إلى مراجعة الفكر السوسيولوجي التراثي العربي الإسلامي والانطلاق من الدين والفكر الإسلاميين وتبني المرجعية الدينية لتفسير الواقع المجتمعي.
3. القراءة التحليلية الناقدة للفكر السوسيولوجي الغربي واعتماد مقارباته النظرية والمنهجية، مع العمل على تطويعها للواقع العربي وتوطينها فيه، من خلال ممارسة نقد داخلي وخارجي عليه.
4. تطوير مناهج المعرفة، واستخدام المناهج الكيفية العميقة لأجل حل مشكلات المجتمع العربي (المنهج التاريخي، الأنثربولوجي، الظاهراتي).
5. إعادة النظر في النظريات المتداولة في الحقول الاجتماعية التي تنتمي في أصولها إلى مرجعيات أجنبية لتقييمها وتحديد مدى تناغمها مع ما تختزنه منظومتنا الثقافية من قيم ومفاهيم وهذا بغية الخروج ببدائل مناسبة لفهم مجتمعاتنا العربية.
6. الاهتمام الجدي بتوفير جميع الامكانات المادية لتمويل البحث العلمي وتأمين الظروف للباحثين من أجل إجراء أبحاثهم وتطوير قدراتهم ومهاراتهم المعرفية.

الهوامش:

1. أحمد ابراهيم خضر: إعترافات علماء الاجتماع العرب (عقم النظرية وقصور المنهج في علم الاجتماع)، منشورات المنتدى الإسلامي، ط1، لندن، 2000، ص27.
2. المرجع نفسه، ص29.
3. المرجع نفسه، ص30.
4. المرجع نفسه، ص31.
5. أبو بكر أحمد باقادر، عبد القادر عرابي: آفاق علم اجتماع عربي معاصر، دار الفكر، دمشق، 2006، ص 117
6. عبد الباسط عبد المعطي: اتجاهات نظرية في علم الاجتماع، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1998، ص ص 169-170.
7. أحمد ابراهيم خضر، مرجع سبق ذكره، ص ص 31-32.
8. المرجع نفسه، ص39
9. حميد الشاكر: الصورة العربية كما يطرحها العقل الإسلامي 2009، مدونة حراء الالكترونية مدونة فكرية اجتماعية وسياسية، أنظر الموقع: http://www.hiramagazine.com/.
10. علي الكنز: المسألة النظرية والسياسية لعلم الاجتماع العربي، ص99، نقلا عن مساك أمينة، علم الاجتماع في الجامعة الجزائرية بين البرامج الأكاديمية والواقع الاجتماعي، مجلة دراسات اجتماعية وتربوية، العدد الرابع، منشورات مخبر المسألة التربوية في الجزائر في ظل التحديات الراهنة، جامعة محمد خيضر - بسكرة (كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية)، جانفي 2009.
11. أحمد ابراهيم خضر، مرجع سبق ذكره، ص39.
12. عماد الدين خواني: تطور علم الاجتماع الغربي من النشأة الى الأزمة، مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية، العدد 12، جامعة باتنة، 2005، ص106
13. أحمد ابراهيم خضر، مرجع سبق ذكره، ص ص 27 -28.
14. المرجع نفسه، ص 33.
15. المرجع نفسه، ص31.
16. عبد الباسط عبد المعطي، مرجع سبق ذكره، ص 188.
17. المرجع نفسه، ص181.

18. العياشي عنصر: نحو علم اجتماع نقدي، دراسات نظرية وتطبيقية، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، ط3، الجزائـــر، 2003، ص101.
19. عماد الدين خواني، مرجع سابق، ص 107
20. عبد الباسط عبد المعطي، مرجع سبق ذكره، ص 189.
21. أحمد ابراهيم خضر، مرجع سبق ذكره، ص 28.
22. أنطوني غيدنز: علم الاجتماع، ترجمة فايز الصياغ، المنظمة العربية للترجمة، ط1، بيروت، 2005، ص673.
23. عبد الباسط عبد المعطي، مرجع سبق ذكره، ص189.
24. أحمد ابراهيم خضر، مرجع سبق ذكره، ص28.
25. المرجع نفسه، ص27.
26. شادية علي قناوي: سوسيولوجيا المشكلات الاجتماعية وأزمة علم الاجتماع المعاصر، دار قباء للنشر، القاهرة، 2000، ص 167.
27. سهى حمزاوي، سامية كواشي: علم الاجتماع بين أزمة المجتمع الرأسمالي وواقع المجتمع العربي، إصدرات مخبر التغير الاجتماعي والعلاقات العامة في الجزائر، عدد خاص بأعمال الملتقى الوطني حول الدراسات السوسيولوجية والتغير الاجتماعي في الوطن العربي، جامعة بسكرة، 2013، ص ص 115-116.
28. ساسي سفيان: أزمة الدراسات السوسيولوجية في الجامعات العربية بين لغة الرقم ولغة الخطاب، مجلة التغير الاجتمـــاعي، العدد الأول، مخبر التغير الاجتماعي والعلاقات العامة، جامعة بسكرة، 2016، ص137.
29. أحمد ابراهيم خضر، مرجع سبق ذكره، ص33.
30. سليم درنوني: علم الاجتماع في الجامعة الجزائرية (إرهاصات الماضي وتحديات المستقبل)، مجلة التغير الاجتماعي، العدد الأول، مخبر التغير الاجتماعي والعلاقات العامة، جامعة بسكرة، 2016، ص ص 94-95.
31. سعد الدين ابراهيم وآخرون: علم الاجتماع وقضايا الانسان العربي، نحو علم اجتماع عربي-علم الاجتمـــاع والمشـــكلات العربية الراهنة-سلسلة كتب المستقبل العربي 7، مركز دراسات الوحدة العربية، ط3، بيروت، 2010، ص 200.